التاريخ أعاد نفسه والجغرافيا كذلك ..

مالك بن الريب والشيخ مسلط الرعوجي يجتمعان بالفروسية والشعر والمكان

الشيخ مسلط بن فالح بن منديل الهذال العنزي الملقب بالرعوجي عاش في القرن الثاني عشر الهجري عاصر الشاعر المشهور محسن الهزاني توفي عام 1185 هجري وفي احدى المعارك التي خاضها ، فاصيب فنقله رفاقه الى بلدة الحريق لمعالجته بها وهناك تقابل مع الشاعر محسن الهزاني وطلب منه ان يرثيه بعد مماته فوعده محسن بذالك واسمعه قصيدته الذي يرثي بها نفسه كما لو التاريخ يعيد نفسه مرة وتعود بصورة مالك بن الريب وصوته حين عاد وهو واضع الحجر الاساس لمحافظة سمنان الإيرانية نسبة إلى مسقط رأسه في قرية سمنان في محافظة الزلفي ، وفي عودته بعد الغزو وبينما هم في طريق العودة إلى «وادي الغضا» في نجد وهو مسكن أهله - وهي نفس المنطقة التي مات بها شاعرنا وفارسنا الشيخ محسن الرعوجي كذلك وتحديدا في منطقة الحريق المجاورة للزلفي - مرض مرضاً شديداً أو يقال أنه لسعته أفعى وهو في القيلولة فسرى السم في عروقه وأحس بالموت فقال قصيدة عظيمة وخالدة ، يرثي فيها نفسه، وصارت تعرف ببكائية مالك بن الريب التميمي :

ألاَ لَيتَ شِعرِي هَلْ أبيتَنّ ليلةً
بجَنبِ الغَضَا ، أُزجي القِلاص النّواجِيا

فَلَيتَ الغَضَا لم يقطَعِ الركبُ عَرضَهُ
وليتَ الغَضَا مَاشىَ الركابَ لَيالِيا

لقد كان في أهل الغضا، لو دنا الغضا
مـزارٌ، ولكنّ الغضا ليْسَ دانيا
أَلمْ تَرَني بِعتُ الضّلالةَ بالهُدى
وَأَصْبَحْتُ في جيشِ ابنِ عفّان غازيا
دَعاني الهَوى من أهل وُدّي وصُحبتي
بِذِي الطّبَسَين ، فالتفتُّ وَرَائِيا

أَجَبْتُ الهَوَى لَمّا دَعَاني بِزَفْرَةٍ
تَقَنّعْتُ مِنْهَا ، أن أُلامَ ، ردائيا
لَعَمْري لئن غالتْ خُراسانُ هامَتي
لقد كُنْتُ عن بابَيْ خراسان نائيا
فللّه درّي يَوْمَ أَتْرُكُ طائعاً
بَنيّ بأعْلى الرّقمَتَينِ، وماليا
ودَرُّ الظّباءِ السّانِحاتِ عَشِيّةً
يُخَبّرْنَ أني هالِكٌ مِن وَرَائِيا
وَدَرُّ كَبيرَيّ اللّذين كِلاهُمَا
عَليّ شَفيقٌ ، ناصِحٌ ، قد نَهانِيا
وَدرُّ الهَوَى من حَيْثُ يدعو صِحَابَهُ
وَدَرُّ لَجاجاتي ، ودَرُّ انتِهائيا
تَذَكّرْتُ من يَبْكي عليّ ، فلمْ أَجِدْ
سِوَى السَيْفِ والرّمحِ الرُّدَينيّ باكيا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيذٍ يَجُرّ عِنَانَهُ
إلى الماء، لم يتْرُكْ لَهُ الدهْرُ ساقيا

ولَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَة نِسْوَةٌ
عَزيزٌ عَلَيْهِنّ العشيّةَ ما بيا
صَرِيعٌ على أيْدِي الرّجَالِ بقَفْرَةٍ
يُسَوُّوْنَ قَبْري، حَيْثُ حُمّ قضائيا
وَلَمّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنيّتي
وَحَلّ بِهَا جسْمي، وَحَانَتْ وَفَاتِيا
أَقولُ لأصْحابي ارْفَعوني لأنّني
يَقِرّ بِعَيْني أن سهَيلٌ بَدَا لِيا
فيا صاحبَي رحلي ، دنا المَوْتُ، فَانزلا
بِرابِيَةٍ ، إنّي مُقِيمٌ لَياليا
أَقيما عليّ اليَوْمَ ، أو بَعْضَ ليلةٍ
ولا تُعْجِلاني قد تبيّنَ ما بِيا
وَقُوما ، إذا ما استُلّ روحي ، فهيّئا
لِيَ القبرَ والأكفانَ، ثُمّ ابكيا ليا
وخُطّا بأطْرَافِ الأسِنّةِ مضجعي
ورُدّا على عَيْنَيّ فضلَ ردائيا
ولا تحُسداني ، بارَكَ اللّهُ فيكما
من الأرْضِ ذَاتِ العَرضِ أن توسِعا ليا
خُذَاني ، فجُرّاني بِبُرديْ إليكما
فقد كُنْتُ ، قبل اليوم ، صَعباً قِياديا
فقد كنتُ عطّافاً، إذا الخيلُ أدْبَرَتْ
سَريعاً لدى الهَيْجا، إلى مَن دعانِيا
وقد كُنْتُ محموداً لدى الزّاد والقِرَى
وعنْ شَتْمِ ابن العَمّ وَالجارِ وانِيا
وَقد كُنْتُ صَبّاراً على القِرْن في الوَغى
ثَقيلاً على الأعداء، عَضْباً لسانيا
وَطَوْراً تراني في ظِلالٍ وَمَجْمعٍ
وَطَوْراً تَراني ، والعِتَاقُ ركابيا
وَقُوما على بِئْرِ الشُّبَيكِ ، فأسمِعا
بها الوَحْشَ والبيضَ الحسانَ الروانيا
بِأَنّكُما خَلّفْتُماني بِقَفْرَةٍ
تُهيلُ عليّ الرّيحُ فيها السّوافيا

ولا تَنْسَيا عَهْدي ، خَليليّ ، إنّني
تقطّع وصالي وَتَبلى عِظامِيَا
فلنْ يَعْدم الوالون بيتاً يَجُنُّني
وَلَنْ يَعْدَمَ الميراثَ منّي المواليا
يقولون :لا تَبعُدْ ، وهُم يدفِنونني
وأيْنَ مَكانُ البُعْدِ إلاّ مَكانِيا؟
غَدَاةَ غَدٍ، يا لَهْفَ نَفْسي على غدٍ
إذا أَدْلجوا عني ، وخُلّفتُ ثاويا
وَأَصْبَحَ مالي ، من طَريفٍ ، وتالدٍ
لِغَيْري وكان المالُ بالأمسِ ماليا
فيا ليْتَ شعري، هل تغيّرَتِ الرّحى
رحى الحَرب،أو أضْحت بفَلج كماهيا
إذا القَوْمُ حلّوها جميعاً، وأَنْزَلوا
لها بَقراً حُمّ العيون، سواجِيا
وَعِينٌ وَقَدْ كان الظّلامُ يَجُنّها
يَسُفْنَ الخُزامي نَورَها والأقاحيا
وَهَلْ تَرَكَ العيسُ المَرَاقيلُ بالضّحى
تَعَالِيَهَا تعلو المُتونَ الفيَافِيَا
إذا عَصِبَ الرُّكْبَانُ بَيْنَ عُنيزةٍ
وبُولانَ ، عاجُوا المُنْقِياتِ المَهَاريا

ويا لَيْتَ شعري هل بَكَتْ أُمُّ مالك
كما كُنْتُ لَوْ عَالَوا نَعِيَّكَ باكيا
إذا مُتُّ فاعْتَادي القُبُورَ ، وسلّمي
على الرّيم ، أُسقيتِ الغَمامَ الغواديا
تَرَيْ جَدَثاً قد جَرّتِ الرّيحُ فوقَه
غُبارًا كلونِ القسْطَلانيّ هَابِيا
رَهِينة أَحْجَارٍ وتُرْبٍ تَضَمّنَتْ
قَرارَتُها منّي العِظَامَ البَوالِيا

فيا راكِباً إمّا عَرَضتَ فبلّغَنْ
بَني مالكٍ والرّيْبِ أنْ لا تلاقِيا

وَبَلّغ أخي عِمران بُردي وَمِئزَري
وبلّغ عَجُوزي اليومَ أن لا تدانيا
وَسَلّمْ على شيخيّ مِنيّ كِلَيْهِما
وبلِّغ كَثيراً وابْنَ عمّي وخَاليا
وعطِّل قَلوصي في الرّكاب، فإنّها
ستُبرِدُ أكباداً وتُبكي بَواكِيا

أُقَلِّبُ طَرْفي فَوْقَ رَحْلي، فلا أرَى
بِهِ من عُيُونِ المُؤْنِساتِ مراعِيا
وبالرّملِ منّي نِسْوَةٌ لو شَهِدنَني
بَكَيْنَ وَفَدّيْنَ الطّبيبَ المُداويا
فمِنْهنّ أُمّي، وابْنتاها، وخالتي
وباكِيَةٌ أُخرى تَهِيجُ البَواكِيا
وما كانَ عَهْدُ الرّمْل منّي وأهلِه
ذميمًا ، ولا بالرّمْل ودّعْتُ قَاليا

وكذلك الشيخ الرعوجي الذي رثي نفسه حياً بقصيدة عجيبة فقال :

قال الرعوجي مسلطا واف الاشبار
عصر الخميس وحفرتي جددوها
شدو وخلوني على دمنت الدار
وحسايفي حتى عباتي خذوها
يا حيف نسيو هدتي هي والاذكار
ومواقفٍ صعبه عليهم نسوها
عقب العقاب الصيرمي طفيت النار
ولو جمعو كل الحطب ماوقدوها
ماغبطهم الا غب طيحات الامطار
من قفرةٍ نبت الثريا رعوها
ياحيف يانوضا انخوتي عن الجار
وبنت المويهي بالغنم سرحوها
ما جوعت ضيفٍ ولا زعلت جار
لوا حسايف كانهم زعلوها
لابد ما تذكر افعولي وما صار
الله يغضبهم ان كان اغضبوها
ياما حلا عشب الخزاما بالاقفار
في سهلةٍ وعيال وايل حموها
الخيل تذكرني ابساعات الادبار
ان جفلو صم الرمك واعجلوها
بمصافق الابطال بالموقف الحار
نوضا على كل النس عززوها
وانا ابقبرٍ صفصفوا فوقه احجار
ونصايب الي فوق قبري بنوها
وسوالفي تبقى صعيبات وعسار
تفخر بها وايل الى رددوها

وبعد وفاته رثاه الشاعر محسن الهزاني فقال:

ياراكبن من فوق مثل السبرتات
حمرا فتات عن لقاحا معفات
تلفى الكواعب من بنات العمارات
يبكن اخو نوضا على راس ماطال
يبكن بدمٍ ليس بالدمع يخلط
يبكن زبون العندليات مسلط
والله فلا مثله على الخيل يقلط
ولا نقلن الخيل مثله برجال
يالبيض كبن الحلي والعشارق
وابكن اخو نوضا امروي المطارق
هو حرزها وان جللوها المعارق
ولحق الوسيق ورد الاول على التال
عليه انا موفا ثلاثة عشر يوم
لا لذلي زادا ولا طابلي نوم
من يوم جاني عن حجا كل مضيوم
سهم المنايا مسلط واف الافعال
لكن في كبدي لهب واهج القيض
على الذي مالا اقلوب العدا غيض
يفداه من لبس السراويل والبيض
ليت المنايا تندفع عنه بالمال
من عقب مسلط ياهل الخيل تكفون
لا في العنوز ولابعد في ذوي عون
كم سربةٍ مهيوبةٍ في ضحى الكون
فرق شعبها والغبو عنه ينزال

الى ان قال :

يوم البوادي تشعف البوش تشعيف
عيا عليها مسلط ماض الافعال
لواعشيري مسلطا حامي القود
راقي حجا العليا ذرا كل مظهود
والى اعتلا منفوق ماتقحم العود
عيا على تال الضعن زين الادلال
لواعشيري ليتني ما بكيته
لو في يدي حلٍ وعقدٍ شريته
وبكل ما تملك يميني فديته
بالبوش والغرس المضاليل والمال